قصص

ناصر الحلواني

غوايات الظلّ



قصص

غوايات الظل

ناصر الحلواني

لوحة الغلاف للفنان **عمر جهان**

خطوط الغلاف للفنان **منير الشعراني**

الطبعة الأولى 1991

المطبعة العصرية

رقم الإيداع: 1991/8600

ISBN 977/00/0232/5

إلى

إسماعيل بن محمد الحلواني

و

عائشة بنت شيخ الحكايا

معارفي الممنوحة

وحروفي المجبولة من جلال وجودهم

تَدَاعِياتُ الظِّلِّ

هناك،

في قلب الشمس المزهوة بوحشيتها،

ثمَّ ظلال حية.

شُرفَة

الكرسي الخيزران المحني الظهر، وأمامه المنضدة الدائرية الصغيرة، تغطيها جرائد اليوم، إلا حيث يوجد فنجان القهوة السوداء، وحول الأرجل الخشبية الرفيعة، تتناثر جرائد الصباحات والأماسي الماضية، تتداخل خطوط عناوينها الضخمة، وصورها الضيقة، وحروفها الصغيرة الكثيرة، المطموس بعضها بقطرات القهوة القديمة اليابسة، وبعض مخلفات عصافير اطمأنت إلى هذا العالم الصغير، وحبَّات أرزه، وفتات خبزه الذي ينتظر قدومها من جهة الشمس، التي اعتادت المكان، وألِفَت أشياءه، فسكنت في أطراف الجرائد، وحنيات الخيزران، وفي الخربشات الحية على ذراعي الكرسي، وبضعة أصوات قليلة متشابهة.

وفي الأمسيات الباردة والدافئة، لم يكن يؤنس هذا العالم الصغير سوى مصباح خافت، يضيء للأشياء، وللجسد القابع في كرسيه، كزمن يمضي في صمت.

قصيدة

القمر في السماء بئر ضوء، يفيض بنوره على قبة الليل، فينسكب ضوؤه كخيوط ألم، على الأسرجة المعلقة في جنبات بيوت متهالكة، وعلى حنايا حبات برتقال، ينجذب كقلوب أصحابه إلى أرض غير بعيدة... بعيدة، وعلى خوذات الجنود المنصوبين في أول وآخر الطرقات، وعلى التراب المقدس حيث سار من زمن أنبياء.

نور نهاري رائق، يمر بالدروب، وبين نسائل أوراق خضراء، محروقة الأطراف، يلمع في لحظات الصمت، ويخفت في زخات الدوي الحارث للأفئدة الماضية، عبر نزوات العنف اللاهي، إلى حتفها. وينفرد على الموت المنثور في طرقات المدينة المأسورة، وينطمر في الوهج الفوسفوري المشتعل في فضاءات المدينة المعزولة حتى عن سمائها...

وبانسيابية، يناور النور المرصود، ويفر من الحريق المترصد له ويعبر بليونة الضوء القمري شفافية زجاج الشاعر، القابع في سكون وحدته،

المائل على كتب الأسلاف، يخط في لغة الغضب عناقيد حبه للطفل يرضع الدخان المسيل للدموع والشيخ يحمل جسد ابنه الدامي، يواريه الوطن، والأم تحمل وعاء ماء مخلوط بروائح من كانوا معها بالأمس، وما عادوا، ومن سمعوه يرتل فيهم قصائده.

يغمس طرف الريشة في المحبرة، ويرسم الحرف الأول، للكلمة الأولى، في البيت الأخير، حيث يقطن المهمومون، والمطاردون، والمأسورون، والشهداء، وينهض، يرنو عبر زجاج نافذته، وعلى الزجاج، تمتزج ملامح وجهه بدائرة قمر فائر في السماء، يفيض بنوره الرحيم على الدنيا من تحته.

تطمس أنوار هائجة لسيارات عسكرية كل الضوء والملامح، وتخرق الزجاج بوهجها المتأرجح فوق أحجار الدرب الضيق. يعلم وجهتها، يفتح بابه الخشبي العتيق، ويتجه إلى كرسيه، يدفعون صخبهم إلى وحدته، ويرحلون به والأوراق.

وفي الضوء الأبيض الرائق لقمر المساء، ينظر إلى جدران بيوت المدينة السارية، فيلمح حروف قصيدته المكتوبة توا.

رؤيا خروج

البحر صامت، يخيم عليه الهدوء حتى الأفق.

هكذا يكون الأمر في موسم الصهد المشمس.

وفي قلب المحيط الرملي، المترامي الأطراف، بين المدن الصاخبة بهمومها، ووشيش البحر اللاهي، يقبع السور المغبَّر بأزمان الوحشة والوَحدة، يرتفع فوق المار حيث يلامس السماء، ويمتد حتى يكون كذؤابة نصل يطعن في الأفق، ويرسم تخوم سجن، ملقى في فضاء رملي متماهي الحدود.

وفي جوفه لم يكن صوت، سوى رقرقة ماء يتساقط بطيئا، من صنبور وحيد متعلق بالجدار الصلد، تهبط القطرات في ثقل، تغيب كتلتها في البركة الصغيرة المشكولة من قطرات سابقة، فتنشط موجات ماء تبدأ دائرية، ثم لا تلبث أن تنكسر هرمونيتها بالاصطدام بجوانب الحوض الإسمنتي الممتلئ إلى حافته، فتفر إلى شقوقه حيث تجبرها الخدوش على

الاستسلام فتتماهى في خضوع إلى سائر الماء.

تنشق الأرض، ذات الصفرة الترابية المكتومة، حول الحوض، عن خضرة شاحبة، تميل إلى السواد، لطحالب مجهدة، ترعى خيوط الماء الهاربة.

ومن الزنازين، التي تنغرس قضبان نوافذها في صلادة الجدران ، يخرج كل رجل في دوره، يحمل دلوه المعدني الصدئ، يفتح الصنبور لآخره، يضع دلوه في الحوض، يتأرجح لبرهة، طافيا على سطح بركة الماء القائمة، وما إن يسكن ممتلئا، وتغيب جنباته المتعرجة في قتامة الماء، حتى يحمله صاحبه، ويمضي، ويجيء آخر، وآخر، وآخرون.

بعدما تنتهي نوبة النظافة، ويأفل نهار آخر، يعودون ليملأوا لحياتهم، نفس الدلاء، ونفس الماء، الذي لا يعلم أحد من أين يجيء، ويعجبون لسيولته برغم كل ما يحمل من أشياء لا يعلمون كنهها.

ويذهب كل إلى زنزانته، يضعون الدلاء في الزوايا، كذخائر ثمينة، ويبدأون نشاطهم المسائي، الذي يحفظون به بعض ما لديهم من وجود إنساني، فيستخرجون الأوراق المخبأة في فراغات الأبواب السفلية، والأقلام المدسوسة في أرغفة الخبز، المركونة بإهمال، وكتبا يحفظونها في

صدورهم، ويشرعون في مجاهدة النسيان والغربة، حتى لا ينحت الموت المحيط صخور صبرهم، وفي ترطيب نفوسهم، وعقولهم، وأرواحهم، حتى لا تؤدي شدة الوحشة إلى تيبس وجودهم، ويتهيأون ليوم الخروج، سواء إلى أرض، أو إلى سماء.

وتبقى القطرات الثقيلة مستمرة، تملأ الحوض بإصرار، يسمعونها في عمق الليل، تُذكرهم بالزمن الماضي فيهم، وبالكائنات المخضوضرة النابتة في صرامة الأرض، تصارع سواد العفن، وجفاف الريح.

وذات ليل، رآها الجميع، ناشرة أشرعة لها لون غريب عن ألوان حياتهم، قاموا، وكل يرمق عين صاحبه، فعرفوا، دون أن ينطق أحدهم، كانت رؤياهم جميعا.

وذات صباح، كان يمكن لكل من يذهب إلى الحوض أن يراها، مثل زهرة ليلك، تطفو في ماء الحوض، ومشرعة للشمس الجهورة، ولعيونهم.

رأى جميعهم شراعها الكتاني مرفرفا، متألقا، في رمادية الأفق الإسمنتي، بادية كالحلم الهائل في عقل طفل صغير، لم يتحدث أحد، لم يكن أحد يقدر على الكلام، كان لعيونهم الصوت الأعلى، وقالت كل

عين كل شيء، لكل واحد.

ملأوا دلاءهم في حرص، وملأت التساؤلات رؤوسهم :

" كيف يمكن لها أن تحملنا !"، "كيف ستخرج بنا".

ثم طرحوا عن أذهانهم التساؤلات، وغامروا بقبول وجودها.

وغادر كل في دوره، إلى زنزانته، لمُّوا أوراقهم المخطوطة، شروحهم، أذكارهم، كتبهم، وخطابات لم تُرسل بعد، وما كانت، وبضعة أشياء، ورؤيا واحدة، تطوف بالأنفس جميعها، الكامنة في معاقلها، ترقب الفجر، ولا تنام.

وفي غداة اليوم التالي، كانت قد غادرت الحوض.

وفي قلب السور البعيد، في الصحراء البعيدة، لم يبق سوى زنازين خاوية، وحراس يمسحون غبار الدهشة عن عيونهم الخشنة، وبضعة أقلام متناثرة، وورقات بيضاء تحملها هبات ريح هادئة، وصوت قطرات ماء، تهبط كثيفة، كزمان يمر، إلى طحالب الصحراء.

دائرة العُشبِ

ساعة مضت حين بدأ المطر في التسارع خفيفا شجيا إلى حديقة العشب الدائرية، ومدَّ المايسترو ذراعه إلى أقصى استطالتها، محيطا بعصاه الصارمة الدقَّة النشوة الكبرى لكمال النغمة الأخيرة، ليُنفذ في قوة فجائية عصاه في لحظة الانتهاء، ويسكن في عمق، مجسدا اللحظة ذاتها، في فضاء من الصمت البادي كموسيقى آخذة في الرحيل. يحوّم التصفيق من حوله، يدور إلى الجمهور، وتقف الفرقة الموسيقية. ويبقى هو جالسا، يخطُّ في الفراغات المتاحة في تذكرة الدخول جملة أولى.

يخرج من الدفء المخملي للقاعة، إلى شتاء الشوارع الذي يخلق دفأه الليلي، يقف عند المدخل، بين الباب الخشبي المصقول، المحلَّى بزخارف النحاس ذات الطابع الأرستقراطي، وبين الدرجات الرخامية العريضة المؤدية إلى الشارع، يتابع قطرات المطر، تعكس توالي انطفاءات المصابيح المحاطة بالمسرح، وتندفع إلى أبر العشب اللينة، لتصبح القطرة قطرات،

والقطرات قطر متناثرة، تمسد المتون الخضراء، وتذوب في الأرض.

يرقب ابتهاج دائرة العشب والليل والمطر، والخارجين، وهمهماتهم الهادئة، يركض البعض إلى سياراتهم، ويسرع آخرون عبر الطري، يتابعهم حتى اختفائهم في الزوايا، أو في مداخل البيوت للاحتماء المؤقت، ويبقى، يبحث عن فراغ لا يأتيه المطر ليمضي فيه، وفي هدوء يسير، وكأن دفء صباح شتوي يغمره.

يمر بباب جانبي صغير، يجتازه العازفون، يحملون آلاتهم الموسيقية في حقائبها السوداء، يمرون أمامه؛ كهل يحمل في جهد آلة التشيللو ويحتمي من المطر بالحوائط وياقة معطفه البالي، وعجوز يمنحها بياض شعرها عمرا يناهز عمر "كمانها". رآهم فرادى، يهرولون عبر الطريق، وجوها مفصلة، كيانات مفردة، أدركها منذ دقائق كعناصر جزئية تشكل كلاً متآلفا مُصاغا في تصاميم موسيقية.

في قلب الضوء الباهت للمصباح الوحيد، خلف الباب الجانبي الصغير، رآها، تقف ساكنة، كلحظة صمت موسيقية بين لحنين، تخشى المطر، وهو أمامها، ساكن كنغمة تشرف على صمت موحي، لا يشعر ثقل الماء بين كتفيه والغيمة الماطرة، يرقب عينيها الجائلتين بين السماء

المحجوبة بالغيم والأرض المنتشية بالمويجات المتألقة، تتمتم بحروف لا يسمعها، تعاويذ صبية ليتوقف المطر، أو لتجتاز عبر المطر دون أن تبتل، ويبقى يرنوها، ككل منفرد، تحمل كمانها، بادية لحسِّه كلحن غير مُمَازج، رائق الأداء، خارجة من كونها عنصرا بوليفونيا، بادية كجملة أساسية، كسحبة قوس متقنة على وتر حر.

أما هو، فبدا لها كجسدٍ غير مُعتاد، مكسو بالمطر، ومثير للرجفة، أقلقها سكونه المشدوه دون خوف، فهو صامت، لا يتحرك، ولا يتوقف عن النظر إليها، ويظل، حتى يخرج العازف الأخير، يحمل نايه في حقيبته السوداء الصغيرة.

ولما بدأ الباب في الانغلاق، لم تكن هناك وكان الضوء الباهت وحيدا، في الداخل الآخذ في الخفوت أمامه، لم تخرج، ولم يعد يراها، نظر إلى السماء، سقطت قطرة كثيفة على شفتيه، شعر بالعطش يجتاح جسده، وكان المطر ما زال ينهمر صاعدا في اتصاله، غير آبه بما يحدث.

ينظر إلى الساعة ذات الوجوه الأربعة، الواقفة في قلب دائرة العشب، يدور حولها، كل وجه يعلن وقتا، ولكنها جميعا تشي بليل ما زال في أوله.

بدا له أن العشب الراقص والمطر يمارسان لحظة وجود صافية، فكَّر "في صباح الغد ستكون ثمة أعشاب صغيرة رائعة تزاول تاريخا يبدأ الآن".

والآن فقط، يشعر البرودة تجول في أقاصي جسده النحيل، ترتاده الشوارع المظلمة، مشبعا بالموسيقى، يخفق من بعيد كرجل من ماء، لا يعكس ضوء.

حَدُّ الألَمَ

أن يكون الولد، أن تكون مغامرة العيش اليومي، أن يمضي على الحد المنصوب بين الطبقةِ الدنيا وطبقةٍ دنيا، يحمل رغيفا، ويقرِّبُ عمره لأسيادٍ، يتألهون كأنصابٍ من حجر، تُصدر صفيرا حينما يمر الهواء في خُرومِها، لأجل أن يهبوه خُطوة ليرجع بها عنهم، وينصبون في رَوعِه: يكفي أن تهبنا يوما من يومك. يُلقي إليهم برغيف من رغيفه، وله لا يبقى غير كسرة، مغموسة في الموت، العالق بمشارف نَفسِه المجروحة، ويصوم عن الحياة، يبذل وجوده قرابينا، ويخطو على الحد المنصوب، بين طبقة تتثاءب وطبقة تسأل، ويمضي بين جذوع اليوم، المنصوبة على الحدود، المغروزة في قلبه.

رَجْفُ الآلهة

أن يكون الباب،

شرائح من جذوع الأرض، وأعمار الضاربين بالنصال في رحم الثمر، ونقوش ملوك يخطُّون في الظل الخشبي، يحجبون سماء ممنوحة للأزقة، ويبنون ممالك خفية، معشقة بالميلاد بنوافذ البلوط اللينة، الموشاة بعرائس الجدران الشُهُقِ، تشج أول السماء، مرصعة بالجمال المهيأ لبصرهم الملول، يتشاهقون بشرَّافات الجوانب، لتهب الكائنات خلف ظل الخشب حكمة السكون، ويمدون الممرات، مزينة بألوان البرودة المبتهجة بالدَّوس، وبالخطوات العارية الموهوبة للسفاد.

تترى النوافذ في وجه النوافذ، تعاشيق من عناصر أولى، تمجد الظل، وتُخفي عيونا مخلوقة للكَنِّ، ونسوة تتقمصن الزمن في مرايا أواخر الممرات، وتبوح بأخشاب تحترف الامتداد، لها وحدة الزمن وتكثُّر المواقيت، في صدرها حفور وجوهٍ أقامت، ومتون سيوف أُغمدَت، بين

رجفة الوجه وسكنة الجسد الأخيرة، وأسلاف ملوك، رسوم في أقواس المداخل، وأختام المواثيق، وآلهة ترقب أزمان الحارات، من خلف مشربيات العشق والمعشوق.

مَتْنُ الظِّلِّ

يصعد اليوم، فتُشرف على السبل ظلال، لها مذاق الأسوار، وقوام مزاليج النحاس على أبواب المدائن، توقظ الحركة في شبابيك الأزقة، ودجاجات تفيق في ركن جدار من حجر رطب، وفي غبار الدرب المتثائب تجلس امرأة، تستند إلى جدار حصن مبهم، تهصر ثديها الصابح، لتقطر في فم وليدها قُوتَ نهاره، وتريق في مسامعه حكايات الممالك الخلفية، وتواريخ أسوار تُخفي جنودا شُرْساً وأفراسا شَكِسَة، وتحكي عن بقايا خدوش ملوك على هوامش بوابات كانت، ومازالت مسطورة في ضلوع الحارات، تقطف له وردة من نحاس القوس الملكي، وتعلقها على صدره، فتنفتح مداخل الحصن، يسيل بعض من شمس سماء الداخل إلى تراب الطريق، تتوالى خلفه الأفراس الحائمة، هائجة، تمزق النور الهارب إلى الدرب المترب، وترجع إلى تترسها.

تلم المرأة أشلاء النور المنثورة، تمسد به صدرها، وتُكمل للوليد حكاياتها.

رتَائِمٌ عَلَقَت بالرِّيحِ

يجوز أبواب المدائن، يحمل حرفه الوحيد،

ينازل الريحَ، والموتَ اللابد في الأخبية المزوقة بالصمت،

محتميا بمعارفه، وبعض حبات من تاريخ،

وشرائط معقودة، ما زالت.

تميمة

في الرَّبعِ، تحكي المرأة للمرأةِ، ولبناتٍ يرتقبن أوان تنسونهن، عن تميمة.

نُقشت بحروب الأسلاف، وحروف من وحي نبي، وسرود من أزمان السالك، ورسوم خافية، تحمل حاملها، وتنأى به عن شغف الطعن الكارِّ، وفلولِ الخيل المَروِي.

وفي الحَومَة، تتغبر أشطار اللحظة، وفي مرايا النصال، تتواتر أشتات الأجساد، والدروع، والأفراس.

وفي قدر من لا زمن، يكون لا شيء، بين التميمة والموت.

لُمَحَةٌ مُغلَقَة

وما إن يفتح لي الباب، حتى انسرب إلى وجوده، يبَشُّ لي، ويشير، أتجه إلى منتهى إشارته، أراه، على الحائط؛ فارسا، يلوِّح بالنصل الأبيض المخَرمَش الحَدِّ، على صهوة الفرس المهيأ للولوج في طاقة النور، التي تؤطر لمبة الجاز، المعلقة أسفل الغمد، المنتصب في حدة، منقوشا بحروف ملتبسة، تتداخل مع أرابيسك الفرع الملتوي، المخضر في زهو.

كادت حمحمة الفرس أن تطيح باللهب الخافت، المؤرَّق، زرقة تتوالد عن صفرة شاهية، يُلمِح إلى النصل: "له في كل حولٍ ألف رقبة"، وإلى الفارس "وألف امرأة"، "يمنح الأرض الدم، وشعوبا تأتلف من صُلبه". يتسع النور إلى حيث تكون اللمحة، الإشارة.

أسأل: "اسمه؟"

يقول: "له في كل واد اسم، وزمن، ودماء غافلة عن حين تأتلف التراب" .

ويعيدني من تهوامي في دلائل حكايته، وحوله يكون العشب، زهوةٌ تحتمل خلاصة حيوات مرَّت، وأخرى لما تكن، وسلافة حكايات، وطيور طالعة إلى سماء الحائط.

صَهْدٌ عَابِر

شمس الظهيرة تقف على حافة البيت الحجري في أول الشارع الصغير، والدكاكين للشمس بلاد، وللدكان الصغير طعم السر، بلاطات عتبته عالية، تمنع غبار الطريق، وبابه المسكوك يحوش نور النهار عن الدخول، تظل عتمته الوحيدة لها رائحة الحرافة المحترقة، لون السكون، وكثافة الهمس الزاحف على حوائط الدكان الباردة.

الدكاكين للعيال معانٍ، لدكان أم الخير ملمس حدوتة لم تنته، يتسللون في الليل إلى عتبته، يتحسسون الأنحاء المظلمة، كانت تراهم، وعيونهم الصغيرة اللامعة، ودهشتهم، والنور خلفهم، ولا يرونها، تناديهم، يبحثون في الفضاء المبهم، ولا يرونها، يعودون بذهولهم البِكر، ويركضون إلى حيث الشمس، ويحكون لبعضهم البعض عما ظنوا أنهم رأوه، وتستند واقفة إلى الرُّخامة الباردة، في قلب الدكان، وابتسامة هادئة تكسو وجهها، ومن حولها يعبق المكان بالرائحة الثقيلة، الصاعدة في حدة، من صفائح المخلل المتروسة أسفل البنك الرخامي، ودُكنة

احتكاكات ثوبها بالأشياء حولها، وأشباح الأرفف البدائية، وقتامة زجاجات ملفوفة بالسيلوفان المتكسر، لا يمسها إلا العناكب، وأصابعها الدقيقة العجوز، والعابرون ليلا في كونها الرحب الضآلة، يجتازون الصهد الراحل وغروب الشمس، ويسكنون إليها.

أنا أنت

الضوء في لون الحليب الرائق، ملموس بصُفرة الجدران المحيطة بلمبات النيون، ينثال النور من حنياتها، تتشربه تغضنات السقف، وعروق خشب قديمة، فيرتد كخيوط شبحية واهنة إلى المقام الأخضر، فتلمع حروف القصيدة المذهبة، المغزولة في جوانبه، فينعكس مختالا إلى الرؤوس الهائمة، تتطاوح بين الضوء والقضبان الخضراء للشباك المفتوح دوما، بين الحارة وفراغ المَقام.

يتردد الإنشاد غائما رخيصا، وتتكاثر الشمعات على حافة الشباك، فيشيع نور يغالب برودة الضوء السابح في حبات العرق السخينة، وصعود الإنشاد قويا هادرا، مثيرا لرذاذ الهواء، فيندفق نسيمه إلى لهب الشموع الموقَدة، يحمل تطوحاتها الوَلْهى إلى جنبات الحارة الهادئة، فلا تكون ظلال، ويفوت نورها إلى ظُلمة دكَّان "أم الخير"، حيث تبدأ تتعطر، وتلف شعرها الأبيض بقطعة ليل، وتحمل شمعتها، وتخرج.

للشمعة برودة سحابة، وعلى استدارتها حفور أصابع الماسكة بها، تمضي في دكنة الثوب والليل، إلى شباك اللهب الدَّاعيها، فتبدأ الأصوات المرتِّلة في الخفوت، ويطول زمن استغراق الرؤوس في التطوُّح، وتأخذ العيون المغمضة في الإفاقة، والأذهان في الانتباه، إلى خطوات الآتية، حتى يَعلَق بصرهم وصمتهم بيدها، تضع شمعتها، وتدخل، فلا تلتفت إلى أحد، وتتهادى إلى المقام الأخضر، تضع كفها فوق حروف القصيدة، المرقومة بخيوط الذهب، فلا يعد يبين من كلماتها إلا" **أنا أنت**"، كضلفتي باب ينفتح لها، فتدخل، وتعود الحروف إلى حيث كانت، وتظل الوجوه مشدوهة، وتمتد الأكف الوَجِفَة، تنبسط على الحروف حيث" **أنا أنت**"، فلا يتحرك شيء، فيُنشدون للذاهبة القصيدة، وتتسارع تطوحاتهم، ويدوِّي الإنشاد في أرجاء المكان الصغير، حتى يتصدع بياض الضوء على الجدران المتآكلة.

ويظلوا، حتى تلج الشمس في طاقة الدخول إلى المقام، فيغدو للقصيدة المرقومة لون الفضة المسبوكة، لنهار طازج، يفيض نوره إلى الشباك، ويرحل حيث الفتائل المسْودَّة، تنمحي في ذوبِ أجسادها المطفأة، ليغيب في لهب الشمعة الوحيدة القائمة، ما زالت.

كُنْ

في الليل، ناديتها، فلم تُجبني.

أفكر لو أن الشمس تبقى مُوقدة، فأفتحُ لها في الغروب مَكامِني، أُغويها على الدخول، وأحلمُ بنهارٍ لا يتحول أو يستسلم لنهايات الأرض والبحر، ولو أن البيضاء المختمرة بالشال الرخيص السواد تملك جماع مخيلتي، أسمع نَفَسَها يخرج ساخنا إلى وجهي، يقول لي: "وبعدين معاك"، أقول لها: "أحبك"، فتضحك، وتضمني بوهن عجوز إلى صدرها، فأحسه طريا، متهدلا بما يحمله من زمن، يأخذ بي إلى حُلم سفر بعيد، وليس سواي، وكون مقدود من ملاء وجودها.

هل سَوَّلت لي نفسي، يومذاك، أن أراها، المحجوبة في سِترِها، البيضاء المختمِرة، التي لم أرها قط، وأتبعها أينما تذهب. وهل كانت حكايات الحارة عنها تُخبر بما كنت أرى وأعرفُ، هم لم يعرفوا أبداً، وما كنت لأحَاجِهم فيها، فقط، أسمعُ، وأصمتُ، وأفكرُ لو أن الشمس

الآفلة تبقى مُوقَدة، لأرى المحتجبة بالليل يكسوها النور.

وفي الحارة الطويلة، الضيقة، المصفوفة بالدكاكين، وروائح المكْمُونِ في قلبها، المحدودة بالبيوت المركومة الكامدة، المهتاجة في سكون، تجيئ أصواتُهم، عن الواحدةِ من غير رجل، تدور في النهارات والليالي، فتُذهل عنَّا رجالنا، المدنِّسة لمقام شيخنا، راعي الملتاعة، وجابر التائقة إلى الخلاص من زمان وحدتها، وعن شمعاتها الممسوسة، التي لا تخلص أبدا، وهمسهم عن الغائبة في الليل، ورغبتها الآبدة.

وأطوفُ في تفاصيلِ المداخل والدكاكين، في قصَبات الصديريات اللامعة، وروائحِ العطارة، والخيزران، والزجاج، والجلود، وقطع الحلوى، والحروف الناعمة، الساقطة من ثنيَّاتِ حجاب، أبحثُ عنها، أروح إلى ريحهَا الحارةِ الحائمةِ من حولي ولا ألمحها، فتلوح لِحِسّي المضنون به، فأحاول اللحاق بها، وأفلحُ؟ لا أعلم.

وأرمحُ، لا أحمل هماً إلا اجتياز الأماكن، أرومُها، من غير أن تدفع بي أيدي أصحابها إلى ترابِ الحارة الهامدِ، ومن غير أن يجري العيال ورائي، فلا يدَعُوني إلا بعد أن أحكي لهم عنها.

وأفكرُ في أول المعرفةِ، حينذاك، في النور الوحيد الخارج من طاقةِ

أعلى باب المقَامِ الصغير، بين مُنتهى الحارة وأول العالَم، والمساءِ المسكونِ بخرافةِ سلالاتٍ سكنَت المكانَ لحين. وكانت تَبينُ، بدنٌ من زجاج غير منظور، يفيضُ بمادتِه، امرأةٌ من ماءٍ وترابٍ هواءٍ ونارٍ، لا يحدُّ تأرجُحَها الممسوكَ شيء، لِميلانِها بريق الخفْقِ المتماوج على وجه نهرٍ يُوحَى إليه.

أيدرك المجذوب امتزاج الأرض والوحيَ، يخشى أن أحداً يراه، فأختبئُ في العتمة الدافقة، وأشُوفُها، تتمايلُ، وتغني، ويأتيني صوتَ بكاءٍ، وريحَ نعناعٍ مصفَّى، وخيالَ الشيخ القائمِ من مَقامِه إليهَا، يلتحفُ الكُسوةَ الخضراء، المرمُوز عليها شعرا، يحمل لها شالها الأسود في خشوع، ويبكي، يفرشُ الشَّال على الأرض، أمامها، ويلقى عنه ثوبه، فلا يكون شيء، وتُلقي عنها مادَتَها، فلا يكون شيء، ويبدأ الخلقُ يحضرون، يلقون عنهم أرديتهم، فيكونون بخارا رقيقا يتكاثف حولها، فأقول لها "أحبك" من مكمني، فتوحِي إليَّ "اخلع عنك رداءك وائتني"، فأنفُذُ من العتامة، أُراكِم رَوعِي ووجدي إليها، أخلع عني رداء مادتي، وأصير إلى شالها، وجودا خالصا.

سفر الواحد

مقدس هو الظل

وترانيم النهار الآفل في كنف الريح، تذهب إلى منتهى اليوم، تحكُّ جدران بيوت الحي القديم، وحتفَ المملوك المذبوح على بوابته، وتنفذ إلى المقام المكسو بخضرة تؤوي فراغا.

مقدس هو الفراغ

تشاكيل المحراب، حكحكات الأقدام الحافية على البلاط الترابي، قصائد العشق والمعشوق، رسوم الأبواب والنوافذ، دندنة الذاكرين، والواحد، في أول الحارة، يهلل:

"أنا المعنَّى بالسفر المقيم، رَحِلِي زمان، آن دائم"

ويخبط بعصاة البوابة الهائلة، فتتأرجح الرؤوس المعلقة، وتقطر دمها، ويردف: **"سأكون لكم اليوم يا أبناء التراب ندا"**

فيرجمه الذاهبون بصمتهم، والجالسون يرشفون الشاي وأقداح الوقت المخمَّر.

أيَرونَه، أيحكون عنه؛ الواحد الضال، الملموس بساكنة العتمة، التائه في الحارات، يقذفه العيال بسخريتهم والأحجار، وتغيب به الواحدات في ليل وحدتهن.

يدلُج، حاملا أسرار الجذب، لذة السؤال، قوانين الولوج إلى شقاء العزلة والحفاء، وعصا غليظة، لدورانها لمعة الماء، تتغمد عقدة شال، يتدلى صرة، تخفق بأسرارها، وتقر بثقل حكاياها، لها سمت المادة الأولى، وملاء الإمكانية، وقدر الهيولى، يحملها كإله أسطوري، يبحث عن فراغ يبث فيه وجودا ويدعه لمصيره.

يجتاز الصخب، والبيوت الكامدة، وعبق الدكاكين المحرَّزة بالمُلتَبِس، والمدينة، واللغز الرابض في مغاليق الأبواب، ويمر بالمساجد، والمقاهي، فيرمقه المصلون والواصلون، يذهلون عن غيابهم، فيختفي.

أيسأل أحدهم عن السالك، أين؟

"وهمَّ الدراويش بيروحوا فين؟"

"تلاقيه كنَّ في عتمة خرابة أو ضلمة قرافة"

يراه ساكنو الخرائب المعتمة، ويسمعون هسهسات خوفه. أتراه تهيأ للبقاء، أم تُراه تهيأ للرحيل، هاذيا حرا، على صهوة فرس موهوب، يسلك غلى الشمس، يخب بفيضه فوق سر الزجاج، ويتكشف للبوادي مثل وحي، فتتصدع حبات النور، وتُهرع عن سبيله كائنات الموت اللابد في الخطو، وضرام الكواسر ناهشة النبوءة، فيمرق غير عابئ، بغير عنان أو سرج، وصُرّة محكمة على العصا والمستور.

أيتبع النَّجم إلى حيث "هي" تتحقق، أم يزجر الساريات إلى حيث يجفل الظل والقلب، تتردد أفكاره ورقرقة جسده على فرسه الجموح المسرَّج بالغبار وشظايا النور.

"أترومُ الغاوية القديسة حتفي أم وصلي، أم وجعي في اتباع القلب إلى حيث تكون؟"

ويخب خبب الشاعر، يتحلق بالقصيد، ويراوح بين القبائل، يستبحث الأرض، ويدسُّ المعارف كلها في ثقب الحرف، فتتولد البلاد، وطن، بين الماء والماء، وجهَتُه الناسكة الغاوية، تنسج المواقيت على الجدران سنابلَ وصقورا، وتنتظر الواصل إلى مقامها.

تقول له: "أنا الزمن الفَرد، أرضُك، فأدخل فيَّ" وتتهيأ.

يقول: "الموت خِباء المرجوف" ويسميها.

تقول: "نُون، أُلفة، صَبوَة، رواء" وتسميه.

تتماس الأسماء لِوَقتَةٍ، ويبرحها، أرض تُنبت الأنبياء والمجاذيب، يحمل الوجود، يبثه في النواحي، ويغادر.

وتسعى بحملها، وصرَّة محصنة، وفرس عارف بدروب النجم والمدن، تغشى أول المدينة، تلملم الحكايات والأسرار، وحبات دم الرأس المعلق في ظل البوابة.

أول الرؤيا

وفي الليلة الثانية بعد الألف رأى أنه نبي، غادر قبة الصوف، يُطلق العشار، ينثر ما بقي من غذاء للساريات في بيدائه، والطائحين في المدى، بين شجرة الشوك وكُثيب يجهر بالشمس، يحمل عصاه الغصن، يودّع شجيرة نابتة على حاشية البئر، يجمع بعضاً من أوراقها، وتركها تحلب الأرض، ترتقب زخات من حزن السماء، ويمضي، يفيض بظله على حبائب الرمل المنحدرة من جهة الشمس إلى غور آثاره الرفيقة، فتتواتر صفرة غير معهودة، تمضي معه، خلفه، بطيئة، كأنها تدرك أن الريح آتية لا ريب، وما يزال في خطوه، حتى أدركته الليلة الثالثة بعد كل لياليه، فلقيها وحيا، فحدَّثها منفردين في فلك من غبار متراكم، ونخيل بكثافة النظرة الواجدة، ونوقٍ هوَّامة بين ركام الغبراء ووهم التمر، حدثها عن أول الرؤيا، أن يكون درويشا، هاذياً حراً "أفرغُ للمعرفة والبوح، أجوبُ الدروبَ ومعجزات القصيد والبشر، ولا أعود، أكون حيث أكون، برّياً، دوماً في مكاني، أعبُّ الزمن عباً، أنغمر في الزمن حتى

ينساني الوقت، أصير كلمة أولى لعبارات متداخلة، لقبائل مبثوثة في كنف النخيل، مموهة المسالك، طَلِقة الوِثاق، أو نقطة تجمع الروح والجسد في لحظة يفنيان ليكونا ثانية، أجادل الأتراب، وأمنح الحرف تعيُّنَه ومعناه، أكون الأيْسَ كلَّه واللَّيْسَ في آن".

يقصد إلى مسلك غير معلوم، بارح الخفا لِذاتِه، صائر كما رأى أنه صار إلى نبته، يروم القبائل، والنوقَ الشاردة يتريثُها، تُعطيه زادَ السبيل.

كان لليل السالك فيه ألفته، وكانت في بسطته رايات تسنَّمَت الريحَ، مشقوقةَ الطرف. أإشارة تأتيه أن للرمز جسدا يحتشد أسفله؟ فيوقن أن اليقين في مجادلة أصحاب البيارق، يهمُّ إلى ساحاتهم، فتضوَّعت في خيامهم ونخيل السهل أحرُفُه "أجيء لجهلكم بجهلي فهل تجادلون؟" فصامتوه.

وما كان لصهيل الخيل المُحاكَة في فروج الأخبية صوت.

وما كان للرَبعِ المحتشد في اضطرام الظلال والنار صوت.

وكانت الإبل تتسافد في وهج الضوء.

تثير الهَجر المؤلم قاتماً والسالك في صمت، ينظر إلى خَلْفٍ مشتعل بالسكون والموت، فلا يرى شيئا، ويمضي إلى آخر الرؤية.

مراودات الوجد

حطَّ في كفي كتابا، منقوش في أول المتن أول الكلام: "دع عن سبيلك أستار الهوى وأسلك سبيل الحقائق".

تفجأني بارقة الوصل، يحل في حال سكوني رسمُها، أهرع إلى مكمني، وأرتقب، قالت: "لا تبرح الأرض حتى تأمن الأرض"، وفاضت على حيرتي بحبات من وَجدٍ معتكف في جنباتها، منقوش عليها آيات نسكها إليَّ، تستودعني إياها.

قلت: "لكِ أبقى بدوام ترحالي"، وأروح إلى أقصى وهادها، أحطُّ في أشجارها رسوم الليل والنهار، وأرتاد عشبها، فألقاهُ، يلتمس في الليل العبارةَ، ويلجأ إلى وحدته وحكمته، أدنو من وهج كونه، فينأى عني الظل، ويدرك هو حضوري، فيحلُّ في سَمعِي كلامُه: "متى عرفتُ أدركت سبيلَك، ومتى بقيت في بدنك صرت لم تدرك".

تهيم رجفة معرفتي بين حدِّ الضوء وحدِّ الظلام، فأؤوب من سَفرَتي

فيها، مخضبا بالماء والريح، وأُسرع في الرحيل، تستلبثني: "برهة نستمهلها، نجول في أرجائنا، يرتادنا اليوم ونجوب الأماكن"، أرنو إلى نواحيها، وأعلم فيها نقوشي، أقول: "في مدى الحروف أراكِ، أبتغيكِ وأبتغي الوصول". تمسد وحشتي بأنسها، تراودني عن سبيلي، تبعث في رهبتي الريح، أستوحش الأحوال وأذكرُهُ، تنأى عن حضوري، فأتهيأ، ألملم أغراسي من مائها وأغراض تَرحالي، وكتَابَه، وأسير، يتابع صوتها خَطوي "سِرْ إلى مشيئتك وإلى مشيئتي أسير".

يغشاني الحزن والمسافة، فيلقاني، وألقاه، ونشرع في سفرنا، يجتاز بي الغشاوة قائلا: "خُطاكَ حرُوفُكَ، فَسِر إلى أرض تبتغيها"، ويمضي معي، يكالمني، أفض طوايا الكلام، أجوبُ في أنحاء بداءَتِي، أتشرَّب الأماكن الهائجة في بصري، وأظل بين شوق لنهارها، وبهجة السلوك في الليل المنكشف، أنتبه إلى عبارته "يَضنَى المُعنَّى بصمته، وبصَمتِه يَبْرَأ".

ويسكن إلى وقته، وأنغمر في خوض سبيلي، وتحلُّ هي في غَمرَتي، فأفتح الكتاب، وآتي الزمان كله في برهة، وأسعى إلى مبتغاي، فتصلني بسبيل وجدها الساري إلى القلب، تصعد إلى أجواز المسالك، وتتدارج في خفوت، حتى تسكنُ فيَّ.

صحائف الخيل

ولما كان الصباح أنبأني "ذلك يوم ينبئ بالغريب"، وصار إلى ركنه، وصرتُ.

نرقب الآتين، يمرقون في الغداة إلى وهدة الصخب، يوفون نذورهم، ويشعلون في دم القرابين بخورا، ويسكبون الخيول على مذابحهم، ويرقصون في خشوع وبهجة. يقول لي: "يهيمون في لوثة التقرُّب، ويفرحون". وتلوح على تخوم السكون أثوابهم، مزركشة بألوان الثمالة، ورجفة الهول في القرابين. أناديه: "أيوفون بالدم المنذور، ويمرحون في التراب والريح؟" يجاوبني: "يصيرون إلى تيه غير معلوم، يحملون أعضاءهم، ويتفرقون في التراب والريح".

ويأخذ بي إلى مكانه، ندفع عن أعيننا ريحَهم، ورؤاهم الممنوحة للأرض، وينشد لي بعضا من أسراره، ونصعد إلى الموطن المرغوب، نتنادى بالأسماء، ونظل في كلام، حتى يجُنُّ علينا الليل، نهبط، نتكئ على

الصحف الموسودة إلى كفه، ونرقب الذاهبين عن وهدتهم، يتدافعون بالمناكب، ويتحاكون، يغمرهم دخان من غنج ولهاث، يتفرقون في الأسواق، يشترون ويبيعون، يلمزون الجواري المعروضة، ويتحسسون خفاياهن.

يباغتنا وهج المشاعل المنظومة في جنبات طريق نهاري، يومئ إلى الرايات المنغرزة في رؤوس الخيام، تناغش صفو السماء، وتحمل الرجال الخائرين، تدفع بهم إلى أعفار الليل، مسلوبي السلاح. يراودني السؤال: "أمطعنون منهوبو السلاح؟" يقول لي: "رهنوا السيوف بطعنة". ومضى إلى مشارف الطريق، فتبعته، يُشهدُني على الرؤية، فأرى في الخلاء خيولا تعدو منجردة، تهيم في الأنحاء، تلهث.

يفتح كتابه ويقرأ: "سيكون زمان تهيم خيوله منجردة، سيكون زمان ..."، وتلمع حبتا عينيه، ويصمت، ينحِّي وجهه عني، ويسير، أتبعه، ينزع عن كتبه الأوراق، يصفُّ صحائفها بطول الطريق، ينظمُ بها تاريخا، وفرسانا، وحروفا من خيول.

حرف

ولما حكى لي عن أبواب مدينتنا ساءلته: "أحدودنا البوابات ما زالت؟ أغريب يصبح من يعبرها؟"

"من أغصان زهور برية، وجذوع أشجار يكثف فيها الأخضر صُنعت"، أجابني قبلما يذهب.

ألحق به، يفرح بي، يأخذني، يولجُ المفتاح في ثقب بابه، فينفتح مكانه، يتمتم بحروف تَخفى على سَمعِي، ويدخلُ، أنبسُ الحرفَ الغامض، وأدركُهُ. يجذبنا الاتساع، يرحل بي إلى أركان مدينته، على الطريق أُبصرُ خيولاً تَرمَحُ، وفرساناً شَاكّين، ونسوة يحملن السقاية والحراب وأزمنة فائتة. يدنيني إليه، يخبرني بقديم عصور وبقايا حروب تتردد في أرجاء الكلمة، يفتح في عيني صندوقَه، يؤوب بالغمد المنقوش والسيف، ويقرأ لي "سُكنَايَ القلب المُتخَثِّر"،

ويقول: "مرموز هذا على النَّصلِ".

"أقبضه؟" أقول.

"للفعل ساعته، يحصلُ حين تكون". يجاوبني.

أمزج البصر بالنقوش، أتعلق بالأركان، ويذهب بي إلى ساحة صلصلة، يأمرني: "أرنُ إلى القعقعة، وتبصَّر صهيل الفرسان على رماحهم". أرنو، أُبصرُ في الوجوه عينيه، أشهده يبرق في الساحة، ويعود، يحمل في القبضة بيرقا، وفي القبضة نقشا، يُغمد السيفَ، يودعه الزمان المضمر في صندوقه، ويرتاح في ركنه.

أسأله: "دعني أحمله".

يرد: "ستفعل يوما".

أسأله أن ينقشه على كفي، يفعل، ويمضي بي إلى أوقات قديمة، ألمحه يجري في الحارات، يسعى في الحقول، يصعد أعلى النخل، يهبط، وفي الكفِّ حرفُ، يمنحني إياه، وينبئني "اجعله في القلب يكُن لكَ الزمانُ المخبوء والسيف"، ويغيب.

أعبر أبواب المدينة، أصير إلى حيث يشهدُني، أردد للسبيل حكاياته، وأفتحُ منافذَ الجسد على الكونِ، وأغرسُ الحرفَ.

غُوَايَات

... عندما تكون الغواية مرقدا أخيرا للجسد،

يصبح للخيال القدرة على التجسد،

ولتكن حينئذ شاعرا يحبك للغاوين قصائده،

أو ناثرا يسرد وقائع وهمه،

ولتؤلف فلسفتك

جسد أقصى

"هل تعلمين البداية؟"

تصامته.

"كان الكون هاجعا ...هل يمكن القول إن للكون فجأة، لعله كان يعلم منذ الأزل، لكن ما حدث أنه تصرف وكأنه فوجئ، لم يكن في الوجود ما هو غيره، فأحس لمرة واحدة، نهائية، أنه وحيد، كم هو مؤلم ذلك الإحساس، فما به لكون! أيمكن أن يكون شيء أعظم روعة من هذا، أأدرك منذ لم يكن أن يكون وجود الآخر في عين اللحظة التي تُعيّن وحدته"

قال له: "لا تجربني"

أخذها من يدها، وخرج بها، ناعسة، تكتسي بدفء الداخل، وجسد قاص. يطوف بها في الشوارع، تكلمه، وتتبع وحيه، ويسعى في نورها.

تقول: "الصبح آت"

يقول: " صبح الشوارع خاطرة، يتماهى بخفة في الأزقة والدروب، يغاير الصبح النافذإلى سريرك، صبح الشوارع كلٌّ، مهيب كنار الأوليمب، يمنحك اكتمالك، فتصبحين بعضا من وجوده، ويصبح دِفأً في أنحاءك، يُدهش البرودة الليلية التي تغشى ملامسك، فلا تعود لك جوارح تسمع وتلمس وترى، بل تصيري أنتِ السمع واللمس والبصر، أنتِ الصبح"

وعند مدخل النهار يتركها، تنقذف في غمار يومها لأجل زاد الحياة، فتخوض بين الهائمين، ترداد أخاييلهم، فيحطوا لها الخبز، فلما تهبط، عين جسد، يقنصونها، ويقتاتون عليها.

قالت: "كنت تعلم؟"

قال: "العلم لا يمنع إمكانية".

قالت: "أنت منفاي".

قال: "وأنت الملاذ والقربان".

تقول: "لكَ وحدَك"

سيقول: "لي وحدي".

ستقول: "لتكن إليَّ".

سيقول: "إليكِ أكون".

وينسيان كل ما سيكون.

وفي المكان، يكونان، ومصباح فرد، وليل بعمر سلافة الوحشة والجسد القصيّ، قربان البقاء، وكلام.

"الهمُّ جاثم".

"احك لي".

"أعن أوراق نثرتها، وفراري من القبض، خرافات عن شطَّار وفرسان، شغفي بالاطلاع على النوافذ، وفرحي بجلاء أسرار الجدران، حزني، ما أراه كل يوم، حوائط صماء وأطر تحفظ صور ما بقي من الموت والغياب، حقائب سفر، وأسنام دواليب مطفأة، نسوة يرتكِنَّ إلى حواف الشبابيك، سقوف واطئة، رجال متعبون، لمبات وحيدة، ضوء فقير وأشياء، بشر يعيشون بقدر السرعة التي يمرون بها أمامي ...".

"ما رأيك في أن نذهب إلى بعض القصائد".

وحينما ذهبا إلى شجرة العهد، وصعدا، كانت كل الرتائم محلولة.

صعود فرد

غرفة مفردة

ونافذة

نسي زجاجها شفافيته عبر أجيال الغبار التي مرَّت به، في الركن، بين حائط يبصُّ على الشارع الصغير، وهلال المئذنة المندمج بالسماء، وحائط يبصُّ على الزقاق المسدود بالسبيل الجاف، يرقد سرير غائم، يشغل الفراغ المتاح خلفه، ركام من الكتب الموضوعة على نحو فوضوي.

وتحت الضوء النهاري، الآتي من النافذة المواربة، تكون مائدة من الخشب المكحوتة صقالته، كشجرة عتيقة، مرهقة الملامح، يغطيها زمن من الأوراق، والكتب المفتوحة والأقلام، وأمامها الكرسي النحيل، بخطوطه المنحنية جميعها، نبتة خريفية وحيدة، ذهلت عنها أرضها، وعليه كانت، قابعة، ترتحل في الأوراق أمامها، ترتقب الجائي إلى وجودها، لتصير هو، فلا تشعر دخوله، يغلق الباب، فتؤوب من سفرها

فيه، وتقرُّ إليه.

يقول لها: "رأيتُكِ في أبصار من مروا بي" ويداري وجعا.

تقول: "لو دانت لي النبوة لأغشيتهم عن مسراي" ويذهب فرحها.

تردف: "ولأغشيتَك عن حروفك، ليكون رحلُك فيَّ".

يقول: "حروفي هي القربان لأجل أن أُمنح معارفي، وأحوز قدرا من وجود" ويرنو إلى عينيها.

ويردف: "تلك الفوضى، أعشقها"

تسأله: "وأنا؟" وتذهب، تداري حزنا، وتكون إليه.

تسأل: "هل نسيتني؟"

"كنت أحاول".

يعرف أن عليه أن يعيش خرافة سنين غير مُجدٍ رصدها.

ويفكر: "هي أول وثان وآخر، وأنا فيها، كلانا مسافر في الآخر، وكلانا مقياس الآخر على حين بدئه وحين نهايته، مِزاج من الأسطورة والوحي، وتكون الخدعة محبوكة بالرحيل، نحمل الروح المضطرب،

فهل يكون ثم موت، هل مات أحدنا أو كلانا، ليس موتا حادثا، بل هو موت حاصل، أو هو في مظنتها حياة، ألجأ في هجرتي منها إلى سبل شتى، قد يكون عليَّ أن أفتح كتابا ليخبرني بما حدث للأولين، فأدرك، أو أكتفي بمعرفة هي ظن، واعتقاد بان طريقا هو أفضل من سواه أو أسوأ، أو ألتجئ إلى كهفي وأرتقب وحيا، أو أن أجيئ إليكِ".

تريق بعض الماء في كفها، تمسح به وجهه وكفيه، وتبلل شفتيه، فيمتص القطرات المخلوطة برائحة الجسد التائق.

وينطق: "ها قد أعدتني مرة أخرى".

وتنطق: "أنت لم تعد!".

وتغادره، تطوف في البرية الأول، تصير وداعا للمهاجر، تركل الباعة عند أبواب المعابد، وتستحيل رغيفا يقضمه الملوك والشحاذون ، وقطرات عطر ينثرها الحبيب على قميصه، ويهذي باسمها، فتكون له نافذة تبص على السبل المتروكة للغبار، أسفار مبعثرة، ولحظة وجد، وتعود.

يسألها: "أين؟"

ترد: "أجوب في القصائد"

يسألها: "نالك الشعراء؟"

ترد: "بقدر ما ملكوا المواهب"

يسألها: "والخارجون؟"

ترد: "ولجوا جميعا إلى سريرتي"

وتردف: "صرتُ لهم الوجع الموحي"

يقول: "وأنا من الموجوعين"

ويقوم مبتعدا.

كانت في حاجة إلى شيء هائل يمكنه دفع الحزن القابض في حلقها، تقوم إلى أشيائه، تطوح بالكتب المفتوحة والأوراق والأقلام.

يسألها: "هل لقيتي في سفرك غيري؟"

وصغيرة كانت الابتسامة في ملتقى شفتيها، فتأخذه إليها، تُخفي في صدره حزنا يلمع في عينيها، تحيط وجهه بكفيها، وبروحها تأخذ في الصعود به.

ولما عادا من غشيتهما، كانت النافذة مواربة، والفراغ شامل.

يناديها، ويبحث عنها في فوضاه،

تناديه، وتبحث عنه في بقاياها،

فلا يكون أحد.

لي غواية الموت

ما إن أفيق منها، لا يعود لملمسها وجود في حسي، أمد يدي، أبحث في طوايا الفراش عنها، في الفراشات الزرقاء المرسومة كالدانتيللا، في البتلات الملونة، وفي بقايا الحياة المقطرة، تتشربها الزهرة الاستوائية الغامضة في مركز الملاءة، فأجدها هناك، تستحم في الدفء الكامل، تتسامر بين أشجار الغابة الحارة، في سرة الأرض.

أشوفها تشدو بأناشيد القداسة والشوق، فأقرِّبُ إليها، لتشيل عني مشاق البعد والوحشة، وأتسمَّعُ مجيئها.

في ذاك الصيف، حين تتهدل عناقيد العنبة التي أنضجتها الشمس، وفروعها المتعرقة، كفزع خائف يلجأ إليك، معتذرا عن اضطراره للبقاء، ينبت نصي الأول، وأراها في ظل التكعيبة، شعرها العذب ما زال مبلولا، تحاول الشمس أن تنال منه، فلا يسمح له الماء الذائب بين خيوطه، وتبقى هي أمامي، مستسلمة لصلاة غامضة، فيقَرُّ سكون هادر، لا يتخلله غير خشخشة الورق الناشف ينازع وهج الظهيرة.

أقول لها: "كلما وجدتني وحدي أراني شاعرا تحقق في زمن الخدعة المكللة بالحقيقة"

وأقول لها: "ما الذي لنصٍّ أن يفعله؟ أ يخبر بالضال في مسارب التاريخ، يموِّهُ على اليومي، يدفع عن كاهله العالم ويلهو بالخيال"

فتنطق: "أ تقدرُ أن تجتاز الغابة وأن تخرج بريئا منها؟"

ستُحل لي أن أحل العقدة المحطوطة على صدرها، أم ستنحلّ لي، ويبين لي الجسد المرمري الجامد، خافت الضوء، ملفوفة خطوطه جميعها في غير تداخل، شفيف كمصباح، لا ظل له، في النور أو في النار، أو في الوهج المتقد من كونها هنا، كمن تستحيل في النور إلى نور، وفي النار إلى نار، وفي الظهيرة إلى هاجرة، وفي الليل إلى صفحة نهر يجري في صمت رخامي، روح صُلبة، حلَّت في بدن لا يُرى.

وأخرج من تحت السماء، يمسني هواء بارد، وأخطو فوق بلاطات رطبة منحولة، تبزغ من جوانبها حشائش طازجة، بدت كأنها مولودة توا، رقيقة هشة، تنتصب حيث الخطوات، فكأنها ستموت الآن، وكأنها كانت لتمارس تجربة فريدة، فأغلق عينيَّ وأبحث عنها في الظلمة، خلف الجفنين، في العالم الواهن، الذي يرتهن وجوده بخطوات البعد عن

الضوء، أستبصرها، يجتاحني النهار، فتتشكل سديما ينطق باحتمالات التلاشي، سحابة من هشيم الليل، تذوب في سِفرِ الريح، وتنمحي في النظرة العاشقة إلى الحبيبة تتبعني، فتنجرف كالحلم إلى موطن الموت.

تساءلني: "أتملك أن ترتاد الغابة وتعود بريئا منها. أن تخطو في الأرض اللدنة، المكسوة بسقيط الورق المعروق بذكريات الموت، تمر تحت الأفرع الكثيفة المتواشجة ، كأنها لتلقف الشمس، فتحيل سقوطها إلى قوس قزح من الألوان المتخالطة الصافية، مِزلج يزيح الواحدية عن الكون الفرد، يحوش عنك التيه في البرك الشاسعة بوحشيتها السرية الهادئة، تنتظر خطوك فيها، لترجف خيالك السائل على سطحها الكامد كمثل المفاجأة، أو لتأخذ بك إلى مكانك النهائي في قلبها، حيث يسكن قمر قديم مثقل بالأرواح"

وأفكر، إلام يستحيل الجمال الميت! فأوقن بروعة الوجود السادر في موته، والمعقود على صدر الحبيبة اللاهية بالأوتار، ترحل إلى أطراف الكون، تجمع الحبيب وترنم:

سيدي البشري

أيها الأيل الراكض بين الأسفار

تبجل نورك

أرن إليَّ من شتاتك

دَع خفق وجودك

ينهمر إليَّ من تلتك

إلى كفيّ

الرقيقتين كالخبز

أودعه قلبي

أيقونةً بتول

وليكن قلبي محرابك

ونطقي رسالتك

فأقوم إليها، أزيح أعواد البردي الندية، أخلق إليها طريقي، وتخطو إليَّ عبر غابتها، فتأتيني، وآتيها، فتتمهلني، وتنبئ:

"هكذا ستكون ممسوسا بما مررت به".

دخول في قُبَّة الوَقت

وظلت حيرتي لأصياف عديدة في فهم الطراز المعماري لذلك البناء القديم. مثل معرفة أولى، كنت أجده مِزاجا من تواشيح قرطبية، نقرات دفوف، أناشيد كورال كنَسي، وبعضا من صليل حرب الإسكندر، وقليل من المواويل الشعبية للقاهرة الراحلة.

لم تكن ذاكرتي لتشفع لي جهلي، ولم تكن البوابة الكبيرة، التي أجتازها يوميا، لتمنحني سر التراكيب معرفة سائغة، ولكنها تسمح لي بالمرور في حَلقِها دون اعتراض.

أجتاز الممر الرطب، تكاد الطحالب العشية تنمو في فضائه، وجوانبه الحجرية، وفي الشقوق بين البلاطات، المتباعدة بفعل زمن خاص، لم يمر إلا من هنا، أكاد أشم رائحة وجودها، واسمعها تنمو من حولي، وخفوت سريان العصارة الصاعدة في طراوتها العشبية.

يصعد جانبا الممر، في نضارة كامدة، غلى سقف ثيِّب مقبَّب، مطليّ بلون صار لا يبين، آثار الفرشاة العريضة تمضي في هدوء، تشكل

خطوطا كامنة في العتمة، بارزة غائرة في حَذَر، ربما لم تلمحها عين "المبيِّض" الكهل.

هل كان كهلا بالفعل، أم تُراني خِلتَه أحد الأسلاف، نصب خيمته واستوطن الزمن المخلوق له، هنا، ثم أفل، ولم يبق منه سوى هذا اللون المجهول، وتلك الخطوط الخافية في السقف الشاهق.

كيف كان إليه هذا الكهل؟ هل لم يسمع بمايكل أنجلو وسيستينا، هل لم يفكر بقداسة الصعود إلى المشاهق، والتحليق في فضاء الأسقف الخام، وتطريزها بالتكاوين، والقديسين العراة إلى من غلالة وحيهم، المقشور في بعض نواحيه، والعرَّافة في قدس النفس المدركة بالنفس، وهل لم يعرف يوشع وداود وجالوت وجوديث وهامان ويوئيل وحزقيال ويونس وزكريا وإرميا والحسين وعروة وصلاح الدين والمتنبي ويسوع ومعاوية وحنظلة وأدونيس وأوزوريس وجيرونيكا وأورشليم وبغداد ودمشق ومصراييم والرب على قبة السماء يتهيأ لأيامه الستة.

لعله لم ير شيئا، ولعله مَلَك المعرفة والجهل الواحدين قبل انفصالهما، أو ربما شهد انفصال النور عن الظلمة، وخَلقَ الموت.

يا له من "مبيِّض" فتى، أزلي. أذكره كلما مررت بالعُقَد الجانبية المجوفة والمسدودة بالحائط الواسع، محاريب قائمة للصلاة الحرة، أرحام تسكن إليها زهريات رخامية بيضاء، أجنَّة أبدية، لَّما تولد، من غير زهر أو طين، أرحام باردة، تنفي احتمال وجود لون آخر في المكان، ركام من الثبات الفائر، سكون صاخب، صخب من غير حاجة إلى سمع، ظاهر ، موجود بالقوة والفعل معا، جوهر يحرك العالم، ولا يتحرك.

عند نهاية الممر، وفي تمام اللحظة التي تنتهي عندها حدود القبة، وتبدأ تتكشف السماء، عبر فروع "العِنَبَة" الناشفة، أسمعه؛ الحارس النوبي الكهل، يحييني، لم أفلت منه مرة، دائما أسمعه، وكثيرا لا أراه. تحسبه روحا مهاجرة، ألِفَت المكان فسكنت إليه، وأعجبُ، هل لا ينام قط، وهل لم ينس قريته الصغيرة الغارقة. لم أكن أفهم أغنياته، أسمعها دندنة تردد في الحوش الواسع، فيصير لأوراق العنبة الناشفة خشخشة، وتمتلئ كل التجاويف تحوِّم في الزخارف، اسبه باللغز المثير، الطِلَّسْم، ترتيل كهنوتي غامض، وكأنه ليدفع عن قريته الموت. أسأله، يجيبني بأنها أغنيات للعروس ليلة زفافها، وللقمر الغاضب، وللولد الراحل، وفي كل مرية يدعو لي، ويقول: "الحمد لله". ذات مرة، قلت له: "بعد كل

هذا الألم والغربة"، فأجابني مبتسما، فبانت منابت ثغره الكهلة لامعة، وكأنها من الفخار المجلَّز، المعمول كؤوسا للتقدمة: "الخير هو اللي فاض على بلادي، أما أنتم فلا يفيض عليكم غير المجاري"، واتسعت ابتسامته، وضحكت.

وفكرت إنه أحد الكهنة الشعبيين، يحوز معرفة الضد الكائن في الضد، ويتلو أوراد الفصحاء، ويقبل القرابين من تمر جاف وخِرَق نسيج وألوان، وأشياء معمولة بالخوص، مشغولة باليد، يُرسِّم المعوزين حكماء، وينَصِّبَهم على بطونهم وقبائلهم، ويظل في الآن ذاته حارسا كهلا، باقيا مثل تميمة معلقة في عنق أسطورة صبية، فلا تستحيل إلى حقيقة فيدركها الموت، لا يغادر بوابته إلا إلى حجرته الصغيرة الخافية، في نهاية الممر، فوق جذر "العِنَبَة"، تحت السلم البادي من تحت السماء، ولا يصعده أبدا.

انتهاءاتٌ أُولَى

ويبقى السر يكبر، يضيق ببداياته، يسعى إلى الامتداد،

فيسري في الكائنات، ويحل في ألوان الشمس السبعة،

وفي غموض الزمن المقبل، يصعد من طين اليوم،

إلى زهرة ترتقب الرائحة الممزوجة باللون المرغوب،

وغدا غير منته.

منتهى العشب أول الرمل

تسكن قدماه الحافيتان تلَّة العشب دائم الخضرة، يرتل في نغم المواكب القدسية بعضاً من أحزان الموتى وفرح الآتين، وفوق العشب يوقفونه، وفوقه شجرة التين، تمد خرافتها وفروعها المتخمة بصمت الظل وخلاصة الطين.

تتشكل النطفة في الرَحِم المقدس القابع في المحاريب، وفي عُقد المساجد، وبقايا الماء في أواني شعب مغدور، وتفاسير الرجل البرِّي للطبيعة والجسد الإنساني والآلهة، ويتشكل النور هالةً تتبع الرأس.

يتدلى الفرع المثقل برغبة المحاصرين له، يشتبك بالنور، والنور بالقلب، والقلب بالدم المعلن في الأطراف، فتتمزق في صرامة بساطة اللون في الرحابة، بين التينة والبحر السماء، وتميل أوراق الأخضر الموشومة في جذوع اليوم إلى مبتدأ الليل، فيبدأ يحتويها الظل اللابد في فجاجة ثمر يداري المرأة المسوَّاة من شبق المدائن، المتربصة بشغف

البرِّي الساعي إلى معارفه بالأشياء، والأسماء، فتخلع عليه الأشياء، والأسماء، والجسد الصُّراح، وتُقرُّ في معارفه أن للصوت تراكيب وألوانا، وللأشياء تفاعيلها، وللأسماء شفرتها، وللجسد أوضاعاً وتجليات لم يألفها، فيتبعها، تخوض به في منتهيات العشب وأوائل الرمل، يفوت إلى الخرافة السارية من الجسد النابتِ، إلى الجسد المدلَّى من مرارة الثمر، يذوب في شغف المتحلقين ، يرقبون خلاص آخر التفاسير.

موت ثان

وكانت الطيور دقيقة الريش تهبط على الجسد المصلوب، تلتقط قطعا صغيرة من البدن المخمَّر في الشمس، وبضع قطرات شفافة متخثرة، وتطير إلى نهاية الذراع المدقوق في العِرق الصُّلب، ثم تهوي فاردة أجنحتها، متناثرة، ممتزجة بالحصى الشوكي، حول الجذع الصالب، فينبت النجيل، وزهرات برائحة البرتقال، ولون الحواجز الخشبية، القائمة، تفصل الطيور عن المساكين، يبتهلون، أن قُمْ، يداومون حتى الذَّوب، فيصيرون شوكا، حادا، لدنا، على طريق الرجوع، وتصير الزهور طيورا، تحوِّم في لمعة القطرات الآخذة في الصعود إلى الحياة، فتصحو الخوابير المارة في الألم المكنون إلى الموت، ويهبط البدن، الجسم، الجسد عن الجذع المنصوب، يخطو، فيصير الحصى في حفائه وجعا.

يجلس إلى حقل الشوك الممدود إلى نهاية النهار، يبكي، فتهرع الطيور إلى قطرات دمعه، تلتقطها قبلما تكون إلى الأرض.

جمرة الارتياد

رائحة موسيقى خافتة، تتكاثف لتملأ فضاء المسافة بين المبعَث وخطوط جسدها الآنس بالنغم، يقترب بها، تتقاصى يداها، تجوبان مزاجات البرية، تفوحان بمقاطع من طقوس تقرُّب، فتأتلف إلى اللحن الغاشيها، تذهب بالعينين إلى لحظة وصول، يبين لإغضائهما الليل الأبدي، متلاوناً بالضوء النافذ في الجسد الضام العين، الراحلة في الجسد المنفرد، البادئ في الخروج عن تفاصيل الذات يستلُّ أوائل الحركة من جمرة البدن، فتستطيل حتى تشمل الكون الكائن في لحظة الخلاص، فيتبدل الزمن المقاس بالأشياء إلى وهج آني، ويدوم الآن، فتتمازج آناء البدن المطلوق بمغاليق الأكوان المستورة، تشتبك الأسرار بأطراف الكف العائد من سماء الفعل ليسكن إلى ليونة الفخذ المرتاب، يحلِّق جاذباً الداخل إلى أقصى إمكانات النغم، وحدود الخارج يفلتها من مواضعها، فينبعث الملح، شذرات من مادة الخوض، تسري في الملامح المتواترة، تلتحم بالانفلات، وتظلُّ، حتى يشج أول العري أول

الملتبس، فتحتد الحركة بشهوة منتهى الوصل، ويسبح الخصر في شطحات تغفل كل اللحظات، يراوح بين الوقف والتهيؤ، ويصعد، ويلين الإياب مترعاً بتواريخ الرمز، لتحوِّم الكفان، تراوحان بين مادة القرابين ومعاني الحركة، تتلاقيان، تتساردان عن مواقيت البعد، تتناءيان، ويداوم الخصر مراوحاته، مشغوفاً بخواطر الجسد، مراوغاً الحدود، وتظل في وصالها، تمد يديها إلى أنأى دلائلها، وترتاد أحوال الحركة، ومقامات السكون.

احتمالات نهار

من غبش الفجر المغسول بالندى يصعد نهار، يعتلي رؤوس الجبال في أطراف المدينة، ويبقى قليلا في المعبد المهجور، هناك، يفرد نوره على تعاشيق اللون فوق زجاج النوافذ، ويظل بعضه ساكنا على حواف الغبار، القابع خلف القديسين المرسومين تحت خيوط عناكب، تعكس ظهورها المصقولة بخار الضوء إلى الوجوه المحشوة بالسكينة، فتبين خابية، مطموسة الإحساس بذُلِّ الخطيئة الهائجة على أطراف أصبعهم، يقبضون بها على دلَّايات من ضحايا الاعتقاد بالصخور، وتنهال ذرور الضوء على الكتب المكسورة بين أيديهم، والكلمات الزجاجية المهشمة خلف حوائط المعبد، تتناثر بين صبارات آخذة في الاصفرار، أكل النمل الوحشي حروفها المجردة، وجعل التشكيلات منازل يباركها نهار، يمرق في سبيله عبر باب خشبي، له رائحة الوقت المطمور، ورُشم في أنحائه أسماء المحطوطين في النوافذ، ويكون إلى عشب المنحدر الجاف، يسيل بأشعته الغاربة إلى الوادي، يحمل ظلال الطير الراحلة إلى مدنها،

وعبقَ الريح الساكنة دهورا في معبدها المهجور، ويبتعد في الوديان، وفي أطراف الأشجار المسافرة، يتفتت في الأشياء والحوائط، ويكمن في الزوايا المهملة، وبين أهداب الهوام، وفي الشقوق، وعلى حبيبات التراب الثقيل، ويعلق بنهايات يوم ذاهب.

مداخلات ليلية

مراسم الليل الجائي تشرع في الولوج، يسقط عن عرشه المرسوم في ملامح المفترقات مَلكٌ، يحيكون شاهدا من مداد زيتي، تخمَّر في طراوة إماءٍ، هُصرت أجسادهن حتى بانت الروح منهن، يلهثن في قبضة بنعومة رياش يتماوج على فراش خلاسية.

وفي مكامن الظل، تحت عروق الورق الأخضر، حيث يسري الماء الممزوج بالطين الخالص والدود، يهجع شعب موفور الوقت، من طيور بيضاء، بلا سوء أو عيون.

وفي حبَّات التراب المنتصبة على حد الطلقات المارقة، يحل الموت في لحظة مباغتة، فيسقط محارب، نفد جوعه، ولما يأته المدد.

وفي المقهى الغابر، على المقاعد المهيأة للمتروك، يتسامر الصحاب، في الليلة المنقضية، ينغمرون في الأمس، وفي الأبد الآتي، يغيبون في صمت طقسي، ينتابه بين الحين والحين كلام.

وفي السماء، كان قمر عتيق، يبحث عن زمن مغاير لليل، مغاير للنهار، تضيق به منازله، يمرق إلى مداره الملل، وحزن ضوء وحيد، يهبط على الكون مساء ثقيلا.

وفي المساء، الموشَّى بنثار كلام لما يكن، وفتات ضوء من نجوم قاصية، يَشجُ الباحات المنثورة، يعلَقُ بحواف الظل والأجساد، تنزع الخلاسية، في خفة موهوبة، لوامع الزمن المعلقة في أطراف الملك المغدور، وتتراءى صور المحارب، مغروزا في قلبه الدرب الترابي، ويثقل الليل المهموم على أجنحة الطيور، فلا تطير أو تُبصر، فتناجي القمر المجهد في سأمه.

وفي المقهى، يغادر الصحاب، وعلى أنحاء المقاعد المهملة، تبقى بضعة حروف مهملة، وبعض من صمت.

فهرس